﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾﴾ [البقرة: 11]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد بيان علل النفاق، شرعت الآيات في بيان مرض الأقوال والأعمال

انتقلتِ الآياتُ من بيانِ العِلَلِ إلى بيانِ آثارِها، فبعد تَعيينِ سَبَبِ النِّفاقِ وهو مَرَضُ القُلُوب، شَرَعتِ الآياتُ في بيانِ مَرَضِ الأقوالِ والأعمال، وهو سلوكُ المنافقين في الإفسادِ في الأرضِ، وموقفُهم ممَّن ينهاهم عنه بوصفِهم له بأنَّه إصْلاح؛ لِكشْفِ عنادِهم ورؤيتِهم المريضةِ لمفاهيمِ الإصْلاحِ والإفسَاد، وأنَّ خَطَرَ نفاقِهم لا يتوقَّفُ على قلوبِهم المريضةِ، بل يتعدَّاهُ إلى نَشْرِ المرضِ في المجتمعِ المسلم، وهذه مناسبةٌ كاشِفَةٌ مُوضِحَةٌ عنايَةَ القرآنِ بآثارِ القُلُوبِ في الأعمالِ، وأنَّ الأعمالَ والأقوالَ ثمراتُ مَاءِ البَاطِن.

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿لَا تُفْسِدُواْ﴾: الفَسَادُ: ضدُّ الصَّلَاح، وهو البُطْلَانُ والاضْمِحْلَال، ويَرِدُ بمعنى التَّغَيُّر[1].

والمعنى الجَامِعُ لَهُ أَنَّهُ خُروجُ الشَّيء عَنِ الاعْتِدَال والاسْتِقَامة[2]، فيكون في الأرض بتَهْيِيجِ الحُروب والفِتَن، وانتفاءِ الاعْتِدَال والاستقامَة عَنْ أحوَالِ النَّاس وزَرْعِهم وسائِرِ منَافِعِهم[3]، ومِنْهُ قولُ الله تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة: 205].

2) ﴿مُصْلِحُونَ﴾: الصَّلَاحُ: نَقِيضُ الفَسَادِ، وهو كونُ الشَّيءِ جاريًا على حدِّ الاعْتِدَال والاسْتِقَامةِ، أَوْ كَوْنُ الشَّيءِ على الحالَةِ اللَّائِقَة به[4]، والإصْلَاحُ: إزالةُ الفسادِ[5].

(1) الزَّبيدي، تاج العروس: (فسد).
(2) الرّاغب، المفردات: (فسد).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فسد).
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/43.
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (صلح).

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

إذا نُهِيَ هَؤلاء المُنَافِقُون عَنِ الْإِفْسَادِ في الأرض بِالْكُفْرِ ومُوَالَاةِ أهله، والْعَمَلِ بالمَعَاصِي، وصدِّ النَّاس عنِ الْإِيمَانِ بالقُرآن وبالنَّبِيِّ ﷺ؛ أجابوا متبجِّحين زَاعمين أنَّ هذا النَّهْيَ لا يَنْبَغِي تَوْجِيهُهُ إِلَيْهِمْ لِكَوْنِهِم الْمُنْفَرِدِينَ بوَصْفِ الصَّلاح والإصلاحِ[1].

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

عَطْفُ الْجُمْلَةِ عَلَى مَا قَبْلَهَا؛ لِمَا بَيْنَهُمَا مِنَ التَّوَسُّطِ بَيْنَ الْكَمَالَيْنِ:

عُطِفَ قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ على قَوْلِه سبحانه قبلُ: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾؛ لِمَا بَيْنَهُمَا مِنَ التَّوسط بين الكَمَالَين، لِكَوْنِهما مُشْتَرِكَتَيْن في الخبريَّة، والمناسبةُ بَيْنَهُمَا ظاهرةٌ؛ والقصدُ هو بَيَانُ أحوالِهم التي يُتَعَجَّبُ من شأنِهَا، فلمَّا بيَّنَ مرَضَهم وأنَّه سببُ نِفاقِهم، شَرَعَ في نهيهم عنِ الفسادِ في الأرضِ، إذْ هو أبرزُ أعمالِ النِّفاقِ في المجتمعِ المُسلم، فنِفاقُهم الخَفيُّ لا يُخفي أعمالَهم الظّاهرَةَ، وليكونَ توطئةً للأمرِ بالإيمانِ.

إخفاءُ النِّفاقِ في القلوبِ لا يُخْفِي فَسادَ الأبدانِ

التَّعْبِيرُ بِـ ﴿وَإِذَا﴾ فيه إيماءٌ إلى وجوبِ النَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ:

جاءَ التَّعبيرُ بـ (إذَا) في قوله جَلَّ وعلا: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ دون (إنْ)؛ لِمَا في (إذَا) مِنَ الدّلالة على تحقُّقِ مدخولِهَا؛ وفيه إيماءٌ إلى وجوبِ إنكارِ المُنْكَرِ وأنَّه مِمَّا يجبُ تحقّقُهُ في الواقعِ[2].

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ الظَّرْفِ:

قُدِّمَ الظَّرْفُ في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ على قوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾؛ لكونِهِ مَحَطَّ الاهْتِمَامِ؛ إذْ إنَّ الآية مَسُوقَةٌ لبيانِ عجيبِ أحوالِ المنافقين، ومحلُّ التَّعْجِيبِ هَهُنَا ليس ادِّعاءَهم الإصلاحَ

إصْرارُ الْمُنَافِقِينَ عَلى اعْتِقَادِ الفَسَادِ صلاحًا إِفْرَاطٌ فِي الْغَبَاوَةِ

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 1/202، والسَّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 42، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 3.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/53.

مطلقًا، بل ادِّعاؤُهم إيَّاه حينما يُنْهَوْنَ عَنِ الفسادِ، ومِنَ المعلومِ أَنَّ شأنَ الفسادِ أَنْ يكونَ ظاهرًا لا يَخْفَى، والإصرارُ على اعتقادِ الفسادِ صلاحًا بعدَ التَّنْبِيهِ والوعظِ: إفراطٌ في الغَبَاوَةِ أَوِ المُكَابَرة[1].

من أسرار بناء الفعل للمفعول:

بُنِيَ الفعلُ لِلْمَفْعُولِ في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾، والقائلُ لَهُمْ ذلكَ هُوَ بعضُ مَن وقفَ على حالِهم مِنَ المُؤمنين المطَّلِعين على شؤُون المُنَافِقين؛ لوُجُودِ صِلَةِ قرابةٍ أو صُحبةٍ، فَيَنْصَحُونَهُم رَجاءَ إيمانِهم، وَيَسْتُرُونَهُم خَوفًا عَلَيْهِمْ مِنَ العُقُوبة[2].

لم يُنصّ على القائل لأنّ الغرض هو بيان شدّة مكابرة المنافقين

ولَم يُنصَّ عَلَيْهِ؛ قَصْدًا لعُمُومِ القائلِ، والنُّكْتَةُ في ذلك بيانُ شدَّة مكابرةِ المُنَافِقِينَ؛ حَيْثُ إنَّهم لا يَقْبَلُونَ مِنَ النَّاصحِ نُصْحًا، سواءٌ أكانَ عَظِيمَ القَدْرِ أَمْ لا[3].

دلالة النَّهْيِ في ﴿لَا تُفْسِدُواْ﴾:

النَّهي في قوله تعالى: ﴿لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يُرادُ به النُّصْحُ والإِرْشَاد[4]، ولا تُنَافي هذه الدّلالة وجوبَ تَرْكِ الفسادِ؛ إذِ المَنْصُوحُ يَجِبُ عَلَيْهِ النُّهوضُ بِامْتِثَالِ النَّهْيِ بتَرْكِهِ؛ والحرَامُ يُنْصَحُ بِتَرْكِهِ ويُرْشَدُ إلى اجْتِنَابه.

الإفساد في الأرض مُحَرَّمٌ يُنصَحُ بتركه ويرشدُ إلى اجتنابه

والنَّهي عَنِ الإفساد في الأرضِ مَجَازٌ مُرْسَلٌ، علاقتُهُ المُسَبَّبِيّةُ؛ فَإِنَّ المرادَ النَّهيُ عَنِ السَّبَبِ؛ فالنَّهي مُنْصَبٌّ على موالاةِ الكُفَّارِ ومُعَاوَنَتِهم عَلَى المسلمين؛ وذلك بإِفْشَاءِ أَسْرَارِهم وتَسْلِيطِهم عَلَيْهِمُ المُفضي إلى هَيَجَانِ الفِتَنِ المُؤَدِّي إلى إفساد الأرضِ[5]، فيدخلُ في ذلك جميعُ أسبابِ الإفسادِ التي من شأنِها تهديدُ اجتماعِ الأمّةِ، وقطْعُ أسبابِ وحدتِها، وزَرْعُ الفِتَنِ بينها.

النّهْيُ عَنِ الإِفْسَادِ نَهْيٌ عَنْ تعَاطِي جميعِ أسبَابِهِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/283.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/284.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/53.
(4) إسماعيل حقّي، روح البيان: 1/59.
(5) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/107.

سرُّ التنصيص على لفظ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾:

ذُكِـرَتِ الْأَرْضُ لبيانِ أنَّ محلَّ الإصـلاحِ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُجْعَلَ محلَّ الْإِفْسَادِ

التَّنْصِيصُ علَى الْأَرْضِ في قوله: ﴿لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ليسَ مِنْ بَابِ التَّوكيد باعْتِبَارِ أَنْ لَيْست لَهُم قُدْرةٌ على إفساد السَّماوات، وإنَّما ذُكِرَتِ الأرضُ تَنْبِيهًا "علَى أَنَّ هذا المَحَلَّ الذي فِيهِ نَشْأَتُكُم وتَصَرُّفُكُم، ومِنْهُ مَادَّةُ حَيَاتِكُمْ، وَهُوَ سُتْرَةُ أَمْوَاتِكم، جَدِيرٌ أَنْ لا يُفْسَدَ فيه؛ إذْ محَلُّ الإصلاحِ لا يَنْبَغِي أَنْ يُجْعَلَ محَلَّ الإفسَادِ"[1].

احتمالُ اللَّام في ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ بين العهدِ والجنسِ:

مقصودُ المُنافقين إفسادُ الأرضِ في أصولِها وفروعِها

حُذِفَ مُتَعَلَّقُ معنى اللَّام إمَّا أن يُحمَلَ على العهدِ الذِّهنيِّ وهو أرضُ المدينةِ المنوَّرَةِ على ساكِنِها أفضلُ الصَّلاةِ والسَّلام، وإمَّا أنْ يُحمَلَ على الجنسِ، أي: جميعُ الأرضِ، وفائدةُ ذلك بيانُ أنَّ المفسدين لا يتورَّعون عن الإفسادِ في الأرضِ كلِّها، بل طمَعُهم يبْلُغُ الأرضَ كلَّها، وفي الآيةِ إشارةٌ إلى الحذَرِ من المُنافقين، فهم يَسْعون إلى إفسادِ غيرِهم، مَهمَا نأتْ ديارُهم، والاحتمالان صحيحان، ولا يتعارَضان؛ فإنَّ المدينةَ المُنوَّرةَ هي المقصودةُ ابتداءً؛ لأنّها أصْلُ الإيمانِ، وأكثرُ ما يغيظُ المُنافقين صلاحُ الأصولِ، وسلامةُ الأركانِ، وجميعُ الأرضِ انتهاءً لأنَّها فروعُ الإسلامِ.

نُكْتَةُ حَذْفِ مُتَعَلَّقِ الْفَسَادِ:

النَّـهـي عـن الإفساد شاملٌ كـلَّ أشكـالـه وأنواعه

حُذِفَ مُتَعَلَّقُ الفسادِ من قَوْلِه تعالى: ﴿لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ "تَأْكِيدًا لِلْعُمُومِ الْمُسْتَفادِ من وقُوعِ الفِعْلِ في حيِّزِ النَّفْيِ"[2].

وذلكَ لِأَنَّ دلالة الفعْلِ مُرَكَّبَةٌ من مَصْدَرٍ وزَمَنٍ يُقارِنُهُ، والأصلُ في المَصْدَرِ أَنْ يَكُونَ نَكِرَةً؛ فيكونُ الْمَصْدَرُ الْمُسْتَكِنُّ في الفِعْلِ وَاقِعًا في سِيَاقِ النَّفْيِ، فيَعُمُّ كُلَّ فسادٍ، ثُمَّ حُذِفَ مَعْمُولُ ﴿لَا تُفْسِدُواْ﴾؛ لِإفادةِ شُمُولِ الأشياءِ القَابِلَةِ لِإيقَاعِ الفَسَادِ عَلَيْهَا، فكانَ هذَا الْعُمُومُ تأكيدًا لِلْعُمُومِ الأوَّلِ.

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/107.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/285.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِأُسْلُوبِ الْقَصْرِ:

مَنْهَجُ الْمُنَافِقِينَ قائمٌ على تَعْمِيَةِ حَالِهِمْ ومَدْحِها

أفادَ قولُ اللهِ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْهُمْ: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ على القَصْرِ، وهو قَصْرُ مَوْصُوفٍ علَى صِفَةٍ قصرًا مجازيًّا؛ إِذْ لَيْسَ ثَمَّة قصرٌ حقيقيٌّ في قَصْرِ المَوْصُوفِ على الصِّفة؛ فكأَنَّهُمُ ادَّعَوْا أَنْ لا صفةَ لَهُمْ إِلَّا الإِصلاحُ!

وهذا القصرُ قصرُ قَلْبٍ؛ لأَنَّهُ واردٌ ردًّا على قولِ مَنْ قَالَ لَهُمْ: ﴿لَا تُفْسِدُواْ﴾، فأُثْبِتَ لَهُمْ وَصْفُ الفسادِ، وهو مُنَافٍ لِلْإِصْلَاحِ، فَرَدُّوا عَلَيْهِ بِقَصْرِ الْقَلْبِ: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾[1].

عِلَّةُ اخْتِيَارِ أَدَاةِ الْقَصْرِ ﴿إِنَّمَا﴾:

المُنافقون يُبالغون في ادّعاء الإصلاح تعميةً لحالهم وإخفاءً لنفاقهم

اخْتِيرَتْ أَدَاةُ الْقَصْرِ ﴿إِنَّمَا﴾ دون غيرها من طُرُقِ القَصْرِ؛ لسبَبَيْنِ[2]:

أحدهما: أنَّها تَخْتصُّ بقَصْرِ القَلْبِ، فَهِيَ أَنْسَبُ لِمَقْصُودِ الكلَامِ المَسُوقِ ههنا.

والآخر: أنَّ ﴿إِنَّمَا﴾ تُستعمَلُ في خطابِ العَالِمِ بالشَّيْءِ، فكأنَّهم يُخاطِبُون من يَعلَمُ حالَهم ويُصِرُّ على الخطأ في نهيهم عن الإفسادِ، فكأنَّ المُنَافِقِينَ - مُبَالَغَةً في تَعْمِيَةِ حالِهم - يدَّعُون أنَّ النَّاصِحَ لَهُمْ بِتَرْكِ الإفسادِ مُغْرِقٌ في الخطأ؛ لِظُهورِ حالِهم في الصَّلاح والإصلاح!

ولذا أُوثِرَ الطِّباقُ ههنا بَيْنَ ﴿تُفْسِدُواْ﴾ و﴿مُصْلِحُونَ﴾؛ إِذْ مُقْتَضَى الظَّاهر أَنْ يَنْفُوا الْإِفْسَادَ الذي اتُّهِمُوا به عَنْ أنفُسِهم، إِلَّا أنَّهم لم يَكْتَفُوا بذلك، بَلْ أَثْبَتُوا لها الإصلاحَ، فالإصلاحُ أَمْرٌ زائدٌ على تَرْكِ الإفسادِ كَمَا لَا يَخْفَى.

ويُؤَيِّدُ هذه المبالغةَ جَعْلُ جملةِ القَصْرِ -﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾- جملةً اسميَّةً؛ لإفادةِ أنَّ اتِّصَافَهم بالصَّلاحِ أمرٌ ثابتٌ دائمٌ[3].

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/285.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/285.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/285.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الأول، من سورة الفاتحة إلى الآية 97 من سورة البقرة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: من سورة الفاتحة إلى الآية 97 من سورة البقرة [إشراف مجمع القرآن الكريم،
قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 1 ، 800 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-52-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 1 : من سورة الفاتحة إلى الآية 97 من سورة البقرة.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-52-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9609262 بتاريخ 2023/03/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»